مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية

المجلد (12) العدد (01) السنة (2025)

الصفحة 345-355

أنماط الأيديولوجيا في رواية "ذاك الحنين" للحبيب السايح

Forms of idiologer inthe novel (dhak el hanin)by sayah

بلعباس رشيد[*1] زكية يحياوي [2]

[1] جامعة الجزائر2 (الجزائر)، rachid.belabes@univ-alger2.dz

[2] جامعة الجزائر2 (الجزائر)، zakia.yahyaui@univ-alger2.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2024/07/03

تاريخ القبول:2025/03/30

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

الملخص:

تأتي رواية "ذاك الحنين" للحبيب السائح لتصور حيثيات الواقع الإجتماعي للجزائريين وطباقاته المختلفة الذي ساد الجزائر في عهد الإستقلال، مستحضرة للذاكرة الجماعية و الفردية لتكشف عن وعي الأديب بالمسببات التي أدت بالمجتمع إلى أن يكون عرضة للصراع بين فئاته المختلفة، وبالنتيجة إنطوت الرواية على أيديولوجيات متعددة تحملها شخصيات من مختلف التوجهات، وفي ضوء ذلك يسعى البحث على أساس المنهج الوصفي التحليلي للكشف عن تجليات هذه الأيديولوجيات التي تضمنتها هذه الرواية قيد الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الأيديولوجيا، الصراع، الواقع، الإنعكاس، الموقف.

ABSTRACT

The novel “Dhak al Hanin”, by Lahbib Sayeh, depicts the Algerian society and its different classes’ reality that prevailed in post-independence Algeria, evoking collective and individual memory to unveil the author’s awareness of the root causes that led the Algerian society to be prone to domestic interclass conflicts. Incidentally, the novel sheds light on various ideologies embraced by characters of different trends.

In light of the foregoing, this research seeks, through a descriptive-analytical approach, to uncover the different types of ideologies hidden between the lines of the novel object of this study.

Keywords: Novel, ideology, conflict, reality, reflection, attitude.

[*] المؤلف المرسل

1.مقدمة:

يلعب الأدب دورا كبيرا في تغيير العالم، إذ جذب إلى حقله فكرة الصراع من أجل الوجود منذ القدم، وهي رؤية تدفع بالإنسان إلى المقاومة والتقدم إلى الأمام بمختلف المجازفات الممكنة من أجل إسترجاع الحرية وتأكيد الوجود، ويكفي للتأكد من ذلك إستقراء تاريخ الشعب الجزائري الذي وقع تحت نير الإستعمار زمنا طويلا ثم إنتفض، متطلعا إلى واقع إجتماعي جديد في ظل الإستقلال، يكون خاليا من الظلم و الإستغلال ومختلف جذريا عن الواقع القديم، من خلال حلم بناء دولة قوية وفق التوجه الإشتراكي لإرساء أسس مستقبل زاهر يكفل العدالة الإجتماعية بين كل الجزائريين ويقضي على الإنتهازية و الوصولية بمختلف أشكالها وصورها.

وتعد رواية "ذاك الحنين" للحبيب السائح، من بين النصوص المهمة التي تناول فيها واقع الجزائربعد الإستقلال بمختلف مراحله، و بالتالي كان مرجعها الراهن المرفوض من قبل المجتمع، الذي أصبح يعبر عن الخراب بفعل التغيير الجذري الذي حدث في البلاد، نتيجة سعي الفكر الإنتهازي إلى تخريب مقومات الدولة، بدءا من المرحلة الأولى للإستقلال وصولا إلى مرحلة التخلي عن التوجه الإشتراكي وإقرار التعددية الحزبية، أين دخلت البلاد في واقع مرير أدى إلى التناحر و التخلف و الفوضى بشكل يوحي إلى صعوبة تغييره والخروج من بوتقته.

من هذا المنطلق سنحاول ضمن هذه الورقة البحثية الإجابة عن إشكالية رئيسية، هي: كيف تجلت أشكال الأيديولوجيا التي إنطوت عليه الرواية؟

وتفرعت الإشكالية إلى أسئلة فرعية هي:

ماهو الدور الذي تلعبه الرواية في معالجة الأزمة الوطنية؟

ما هي دوافع لجوء الكاتب إلى التاريخ وإلى الأحداث السياسية بعد الإستقلال لبناء عالمه الروائي؟

هل يساعدنا الماضي على فهم الحاضر؟ وهل إستطاع الكاتب سرديا خلق أداة للرفض والتغيير؟

2- مفهوم الأيديولوجيا:

يرى الكثير من الدارسين بأن من أهم الإشكالالت التي تعرفها العلوم الإنسانية بصفة عامة تحديد دلالات المصطلحات وترجمتها، ومن ذلك مصطلح الأيديولوجيا الذي يعد من أشد المفاهيم إلتباسا وإستعصاءا على التعريف، مما أدى ذلك إلى إتساع مجاله المفهومي الذي شمل دلالات مختلفة، والسبب في ذلك يعود إلى كونه من المصطلحات التي تتداخل في تحديد مجاله المفهومي حقول معرفية وفكرية مختلفة، الأمر الذي أدى إلى تعدد تعاريفه إنطلاقا من الزاوية التي نظر منها كل باحث، وإلى كونه قد عرف عدة تطورات في مساره التاريخي مما جعل كل حقبة تعرفه تعريفا يختلف عن تعريفه السابق، تماشيا مع ما هو سائد من تصورات وتطورات علمية وفكرية، ومن ثم فإن تاريخه مظطرب، إذ ظل منذ نشأته محل خلاف إبستمولوجي بين العلماء حول دلالته، مما صعب كثيرا من مأمورية وضع تعريف جامع مانع له يضمن له إستقلاليته و بقاؤه.

ف" الأيديولوجيا لفظ لاتيني ينقسم إلى قسمين(idio) وتعني الفكر، و(loger) وتعني العلم، ظهر لأول مرة كعلم يدرس الأفكار، حين طرحه الفيلسوف الفرنسي ديستوت دي تراسي سنة (1796م) في مذكرة قدمها يهدف من خلالها إلى إيجاد علم يهتم بالأفكار و يدرسها دراسة تجريبية يخرج بها من دائرة التجريدية و الميتافيزيقا" (**عيلان، 2008، صفحة 37**).

ومنه يتجلى بأن مصطلح الأيديولوجيا من المصطلحات المنتمية لعلم الأفكار وذوعلاقة وطيدة بالفلسفة وينطوي على عناصر تشكل بنيته تجعله يختلف عنها، وحتى تكون الأيديولوجيا فعالة لا بد أن تترجم أفكارها إلى أهداف قابلة للتطبيق في الواقع المعيش.

في الفكر الماركسي إرتبط المصطلح بمفهوم الوعي الزائف الذي لا يتطابق مع الواقع، فهي مجموعة التصورات المزيفة التي تصب في خدمة مصالح طبقة إجتماعية معينة، تقوم بتشويه الحقائق لخدمة مصالحها و تستهدف تحقيق السيطرة المطلقة بإعتبارها الطبقة التي تسود في المجتمع " لقد نظر ماركس إلى الأيديولوجيا على أنّها طائفة من الأوهام التي تخلقها الأنا و التي تمنعها من إكتشاف حقيقة واقعها، ولذلك لابد للأنا أن تبحث عن تلك الحقيقة في التاريخ الواقعي و ليس في الوعي" (**سوسان، 2022، صفحة 143**)، فالأيديلوجيا كما يراها ماركس وتلميذه إنجلزعبارة عن منظومة من التصورات و الأفكار المشوهة لحقيقة الواقع، فهي لا تعبر في الغالب إلا عن مصالح الطبقة الإجتماعية المتغلبة والتي تمتلك وسائل الهيمنة الفكرية في أي مجتمع من المجتمعات.

لكن هذه النظرة السلبية للأيديولوجيا في الفكر الماركسي سرعان ما تلاشت فيما بعد على يد ثلة من المفكرين البارزين من الماركسين وغيرهم، فقد عرف المصطلح تطورات مهمة فإكتسب بذلك صبغة إيجابية، وبالتالي أصبح له دور كبير في الحياة البشرية، وفي هذا السياق، جاء فلادمير لينين بتصور مغاير لمفهوم الوعي الزائف، فقد عمل على تجاوز المحتوى السلبي الذي ألصقه به المفكرون الكلاسيكيون، ويستشف ذلك مثلا من خلال ربطه بين قيام الثورة وضرورة وجود نظرية مسبقة تؤطرها، وفي هذا الشأن، فقد إعتبر "تولستوي" بأنّه ملهم الثورة الروسية، من خلال أعماله الأدبية التي صورت معاناة الفلاحين الروس في ظل النظام الإقطاعي المستبد، ومن هنا يتجلى بأن الأدب يعد شكلا من أشكال الأيديولوجيا.

أما أنطونيو غرامشي فهو الآخر ضد مفهوم الوعي الزائف للأيديولوجيا، و قد إنصب إهتمامه على الوظيفة العملية التي تلعبها الأيديولوجيا في الحياة، و التي تتجلى في صورة أعمال مادية تقوم بها مؤسسات المجتمع المدني مثل الكنيسة و المدرسة و الصحافة وغير ذلك، فالأيديولوجيا من وجهة نظره عبارة عن رؤيا للعالم هي بمثابة عقيدة تحفز على العمل الذي يتجلى في كل تجليات الحياة الفردية و الجماعية(الفنون، الدين، الأشطة الاقتصادية، الفلكلور)، وبالتالي فإنّ من المقومات الأساسية التي يقوم عليها أي مجتمع هو ضرورة ضمان الهيمنة الأيديولوجية إلى جانب المقومات و العناصر الأخرى (**الأنصاري، 2000، الصفحات 39-40**).

وإذا ما ولينا وجهنا شطر الفكر العربي وجدنا إختلافا بارزا بين المفكرين العرب وهم يقومون بمحاولاتهم التعريفية لهذا المصطلح، وفي هذا السياق، نجد عبد الله العروي يميز بين ثلاثة معان كبرى للمفهوم تتجلى في ثلاث مجالات أساسية وهي:

– مجال الطرح السياسي، حيث تعني الأيديولوجيا كل تفكير خادع أو تضليلي، فتتخذ شكل قناع.

– مجال الإجتماعيات، حيث تعرف بإعتبارها حصيلة الأفكار و القيم و المثل و التصورات التي تتباناها جماعة ما، وهي التي تحدد لها رؤيتها للواقع الإجتماعي و التاريخي، فهي هنا تعني رؤية كونية للعالم.

– مجال الإبستمولوجيا، فالأيديولوجيا ليست سوى المعرفة السطحية للأشياء في حين أنّ العلم هو المعرفة الموضوعية العميقة بكنه الأشياء (**العروي، 2012، صفحة 13**).

ويقدم الدكتور مُحَمَّد علي أبو ريان، تعريفا مهما للأيديولوجيا إذ يؤكد على أنّها تنطوي" على مجموعة من العقائد والأفكار و التصورات و المشاعر و التقاليد و الأمال و الظروف الزمانية و المكانية، التي تؤثر في أنماط السلوك للأمة والجماعة، ومن ثم فلابد من ملاحظة الإرتباط الوثيق بين الفكر و العمل في مكونات الأيديولوجيا" (**أبو ريان، 1997، صفحة 228**).

فالأيديولوجيا بهذا المفهوم هي مجموعة من الأنساق و المعتقدات و المفاهيم و الأحاسيس التي تؤثر في سلوك الفرد والجماعة من خلال إختيارمنظور يوجه إختياراتها السياسية أو الإجتماعية أو الدينية وغيرها ويعزل مجموعة أخرى تماشيا مع رؤيتها للعالم و الوجود، وهذا يعني أن الخطاب الأيديولوجي يسعى إلى تغيير العالم وفق ما يتوافق مع مقدماته وشروطه بناء على فهم محدد لهذا العالم.

ومن جهته يركز عمار بلحسن على نقطة مهمة تتعلق بمسألة التأثير المتبادل بين البنية التحتية و البنية الفوقية لأي مجتمع من المجتمعات والتي يقوم فيه الفرد بدور بارز في صياغة الأفكار و التصورات التي بها يتميز عن غيره، فالأيديولوجيا" نسق من التصورات يحكم الفكر و الممارسة و يشكل مستوى من مستويات التشكيلة الإجتماعية، فهناك تأثير متبادل و متداخل ثلاثي العلاقات بين البنية التحتية و البنيات الحقوقية و السياسية و البنية الأيديولوجية لاي مجمع، وتتضمن الأيديولوجيا الأفكار السياسية و الحقوقية و الدينية والأخلاقية و الجمالية التي تتجلى في أشكال تصورات متعددة للعالم، ولدور الإنسان فيها وبهذه التصورات وفيها يتوافق و يتناقض الإنسان مع جماعته" (**بلحسن، 1985، الصفحات 165–166**).

يتضح من خلال ما تقدم، تنوع مفاهيم الأيديولوجيا بتنوع الإتجاهات الفكرية وعدم إتفاق الباحثين على تعريف موحد يكون جامعا مانعا، فالأبحاث في هذا الشأن لا تزال مستمرة، كما يتضح بأن للفلاسفة الذين جاؤوا بعد ماركس قد خلصوا المصطلح من مفهوم الوعي الزائف، فأصبحت الأيديولوجيا عنصرا مهما في المجتمع تتمتع بدور وظيفي وعملي، ويتفق مع هذا الطرح كما رأينا جل المفكرين العرب.

أما عن محاولتنا التعريفية، فالأيديولوجيا هي نسق من الأفكار و المعتقدات و الأحاسيس و التصورات التي ينطلق منها الفرد ومختلف التيارات الفكرية لأي مجتمع من المجتمعات لتفسير الظواهر الإجتماعية، يتجلى ذلك في أنماط السلوك و الطقوس و التقاليد بهدف السيطرة على المجتمع وتبريرذلك وتسفيه الأفكار المناوئة.

3– "ذاك الحنين" وتجليات الأيديولوجا:

يؤكد النقاد فيما إطلعنا عليه من أبحاث و دراسات على أن هناك ثمة علاقة بين الرواية والأيديولوجيا، حيث أصبحت تشكل عنصرا مهما من عناصرها البنائية الفنية، وتتجلى الأيديولوجيا في الرواية أكثر من الأجناس الأدبية الأخرى، لأنّها تمنح الكاتب حرية في التعبير عن مختلف القضايا ونقدها وإتخاذ موقف منها، فهي تورط ذاتها في الصراع الدائر في المجتمع و لاتكتفي بعكس الواقع ومحاكاته، ومن هذا المنطلق، يتبين بأن المبدع وهو يقوم بكتابة عمله لا ينطلق من فراغ بل يكون واعيا بالصراع القائم في المجتمع، ويكون واقعا تحت تأثير مجموعة من المؤثرات الخارجية التي أخذت منه حيزا كبيرا من إهتماهه دفعته لإنتاج نصه الإبداعي، فلولا هذه المؤثرات لما وجد هناك أدب، و بالتالي لا يمكن للرواية أن توجد بدون أيديولوجيا، وبحسب رونيه باليبار فالأدب لا يمكن أن يقوم إلا على أساس التناقض بين الأيديولوجيات.

ومن منطلق قناعة فكرية مفادها أن الأديب يحمل رسالة يحاول بها التأثير على المتلقي لحمله على الإنخراط في مشروعه الأيديولوجي، لاحظنا أنّ الرواية الجزائرية كانت أشد صلة بعمق المجتمع الجزائري و مواكبة لمختلف التغيرات والتحولات الحاصلة فيه سياسيا وإجتماعيا ودينيا وثقافيا وإقتصاديا...إخ، يدل على ذلك الإنتاج الروائي الضخم الذي يعبر بلسان حاله عن تأزم هذا الواقع الإجتماعي و تشابكه، فلم يعد للشعر أو القصة قدرة على إستعابه بكل حيثياته إلا الرواية نظرا لمميزاتها الإستعابية و الفنية التي تؤهلها للتعبير عن مختلف المواضيع.

تطرح رواية "ذاك الحنين" عدة مسائل وقضايا ذات علاقة بالمجتمع الجزائري في مرحلة حساسة من تاريخه الحديث خاصة خلال فترة العشرية السوداء، طرق الكاتب بجرأة كبيرة كعادته مواضيع قل من يطرقها، حيث تناول واقع البلاد المليء بالصراعات و الفساد و الإستغلال و التقهقر الحضاري على جميع الأصعدة، والتي تولدت بحسبه نتيجة تخلي النظام عن النهج الإشتراكي و إستعاضته بالنظام الرأسمالي المتوحش المرتكز على تحالف بين السلطة و أصحاب الأموال، الذي يعتبر إستمرارا للسياسة الإستعمارية التي أنهكت كاهل الجزائريين لعقود زمنية طويلة، حيث أظهر الحبيب السائح رفضه المطلق لسياسة التخلي عن المشروع الإشتراكي الذي يضمن برأيه تحقيق العدالة و المساواة بين جميع الجزائرين ويقضي على أشكال الظلم و الإستغلال، وبالتمرد عليه أصبح الشعب يعيش في بؤس وحرمان وفي دوامة من الجرائم والفساد، مما أدى إلى الصدام المسلح، حيث عبر الروائي عن رفضه لهذا الواقع، وفي نفس الوقت دعا إلى تغييره من خلال العودة إلى تطبيق الخيار الإشتراكي، لأنه أدرك أنه بإستمرار هذه البنيات المستجدة بكل سلبياتها فإنّها لا تفيد الجزائر في شيء، بل تسير بها إلى أوخم العواقب، وذلك عبر إبراز خصائص هذا الواقع الراهن وإعادة صياغته فنيا وروائيا.

3-1 دلالة العنوان:

يعد العنوان عتبة رئيسية لفهم مضمون العمل الأدبي، فهناك علاقة وطيدة وتبادلية بين محتوى النص و مضمونه، لذلك يجتهد المبدعون كثيرا في وضع العناوين المناسبة لأعمالهم قصد فهمها من قبل المتلقي وجذبه إلى عالم النص وقرائته إلى نهايته حتى يتبدد له السر الذي يكتنزه العنوان عند نهاية عملية القراءة، وإذا تأملنا في العنوان الذي تحمله الرواية وجدنا أنّه يتركب من كلمتين هما: "ذاك" و "الحنين"، تعرب "ذاك" إسم إشارة مفرد مذكر مبني على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، و"الحنين" بدل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره، فالعنوان ورد جملة إسمية

التي تفيد الثبات، وقد جاء في لسان العرب الدلالة اللغوية لكلمة الحنين فيقصد به" الشديد من البكاء و الطرب، وقيل هو صوت الطرب كان ذلك عن حزن أو فرح، و الحنين الشوق و توقان النفس و المعنيان متقاربان، حنّ إليه يحنّ حنينا فهو حان، و الإستحنان الإطراب، وإستحن إستطرب، وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها و أولادها، و الناقة تحن في إثر ولدها حنينا تطرب مع صوت...وتحننت الناقة على ولدها: تعطفت و كذلك الشاة. عن اللحياني. الأزهري عن الليث: حنين الناقة إلى ولدها وحنينها نزاعها إلى ولدها من غير صوت" (**إبن منظور، صفحة 129**)، ومنه يتجلى لنا بأنّ المعنى من الحنين يفيد الشوق إلى الشيء.

ولجا الكاتب لإستخدام هذه الجملة الإسمية "ذاك الحنين" للدلالة على الوضع المتردي الذي أصبح عليه وضع البلاد نتيجة التخلي عن النموذج الإشتراكي الذي كانت تسير عليه البلاد في عهد الحزب الواحد أين تحقق للجزائريين الأمن و الإستقرار و الرخاء الإقتصادي خاصة في السبعينيات من القرن الماضي، عكس الواقع الراهن المتردي و البائس الذي أصبح يسم حياة الجزائريين، فكأني بالكاتب يتطلع ويحن إلى ذلك العهد و يطالب بعودته، لأنه يرى فيه الحل الأنجع لجميع الأزمات التي حلت بالبلاد، إلا أن ذلك يبدوا مستحيلا بفعل التراكمات الناتجة عن تسلط الإنتهازيين الذين لا يهمهم سوى مصالحهم الخاصة على حساب مصالح الشعب، فعملوا على نخر مقومات الإقتصاد الوطني وتعطيل مشاريع التنمية وكل ما يصب في مصلحة الشعب، مما أدي إلى حالة من عدم الإستقرار و الفوضى وتحطيم أمال المستقبل الواعد الذي ناضل من أجله الأجداد، وهو ما ترفضه الرواية و تدينه وتدعوا إلى تغييره و إحداث القطيعة معه.

وما يقال عن العنوان الرئيسي يقال أيضا عن العناوين الفرعية، فغالبية هذه العناوين و التي يبلغ عددها ثمانية عشر عنوانا وردت بصيغة إسمية الدالة على عدم الحركة (ريق الفجر من عسل الجنة، واليوم من أمسه في غده آيل إلى الحسرة، ذا الهذيان، لامفر، ذراعه حزينة يبث إليه شكوى الحجر...إلخ) وهي تشير إلى عدم تغير الأحوال إلى ماهو أحسن بل إزداد الوضع سوءا على سوء، في حين أنّ بقية العناوين المتبقية (إفتقدت الأعشاش لقالقها- أبغي أجنّ كيما أقترب منك...إلخ) جاءت جملة فعلية الدالة على الحركة وهي تعبر عن رفض هذا الواقع البائس وتدعو إلى تغييره.

وعموما فالدلالة المستنبطة من عتبة العناوين تعبر عن حالة رفض الكاتب لهذا الحاضر المتردي وحنينه إلى الماضي القريب و الزاهر، بسبب التغيرات الجذرية التي حدثت في البلاد، أبرزها التخلي عن التوجه الإشتراكي و الدخول في النظام الرأسمالي وفتح المجال أمام التعددية السياسية التي تولدت عنها كل الشرور، بأن تسببت في الحرب الأهلية و سيادة الفوضى وعدم الإستقرار، فلا شيء أصبح يبشر بمستقبل أفضل نتيجة عدم الشعور بالمسؤولية وبثقل الأمانة الملقاة على عاتق كل الجزائريين حكاما ومحكومين على حد سواء.

3-2 أيديولوجيا الإستعمار:

تعتبر الثورة التحريرية مرجعية فنية وأيديولوجية للروائيين الجزائريين، فلا تكاد تخلوا رواية من الإشارة إلى الإستعمار و أيامه وواقع الجزائريين في ظل حكمه، هذا الواقع الذي إتسم بالبؤس و الفقر والتخلف والإستغلال والمواجهة مع الآلة العسكرية الفتاكة، ورغم أن الروائي تناول واقع الجزائر في فترات محددة من عهد الإستقلال، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من العودة إلى التاريخ ومن ثم الحديث عن سياسات الإستعمار التعسفية التي طبقها على الجزائريين من أجل تثبيت أقدامه

على هذه الأرض إلى الأبد، وهذا يعود في نظرنا إلى رؤية الكاتب التي تلمح إلى ضرورة مواصلة النضال من أجل التغيير، لأن الواقع الجزائري الراهن لم يختلف عما كان عليه واقعهم في عهد الإحتلال.

والغريب في الأمر أن أيديولوجيا الإستعمار في هذه الرواية ظهرت في صورة ناعمة بعيدة عن العنف سعيا منه لخداع الجزائريين، ليعطي صورة إيجابية لدى الأجيال القادمة حتى و إن خرج منها مقارنة بمن يحكمها من الهلاليين المفسدين"هناك كانت سوزان، هنا أصبحت عينونة، وهنا كان متحف،، هنا أصبح حماس، هنا كان ورد يسقي على هذه الشرفة ، هنا أصبح ولد بوخنونة يطعن، ومن هذه الشرفات كان يرمي أيام الأعياد عدس الورق، من الشرفات صارت القاذورات تلقى...هنا كانت معطرة، هنا أمست مخراة. وظلت روائح المعصرة القديمة الحامضة تنبعث برغم الرياح كلها إلى أن طمرها السميد المستورد المكوز...وعقة الخضر و الفواكه الخامجة. ولكن إختفت و كل شيء إندثر" (السائح، 2002، صفحة 55).

كما إرتبطت صورة الإستعمار بالتربية و التثقيف على الرغم من أن ذلك كان حكرا على الأوروبيين وعلى العملاء و أبنائهم، وهذا لتلميع صورته من خلال إبراز جهوده في نشر الحضارة ليجعل من ذلك نموذجا إيجابيا تأسف على ذهابه الأجيال اللاحقة، بالنظر إلى الواقع الهلالي الراهن الذي ساده الجهل ولا يوجد ما يحفز على العلم أو الإهتمام به، وهي صورة نمطية للرجل العربي عموما الغارق في ظلمات الجهل والتخلف ولا يبحث عن مقومات التقدم الحضاري " غابت المادلينيات و الجوزيفينيات و الماريات و أخواتهن، وذهبت روائح العطور من جنبات الشارع الرئيسي، وكمن الفرح، وخلف من بعدهن خلف من العينونات و التاليات و الزانات و السلامتات، لا يقرأن و لا يكتبن ولا يحسبن" (الرواية، صفحة 68).

وتستمر الرواية في عرض أيديولوجيا الإستعمار التي بقيت محفورة في الذاكرة، لتؤكد أن السياسة الفرنسية لم تقتصر على العنف والتقتيل والتهجير فحسب، بل تجاوز ذلك إلى نهج سياسة الإغراء بالمشاريع الإقتصادية والثقافية، ما حتم على الجزائريين الوقوف في وجه هذا الطغيان وهذا العنف بعنف مضاد وأعظم منه" لانّ محو الإستعمار هو حدث عنيف دائما وهو عملية إحلال نوع إنساني محل نوع إنساني آخر إحلالا كليا ومطلقا" (**فانون، 2006 ، الصفحات 22-21**).

3-3 الأيديولوجيا الرأسمالية:

رأينا فيما سبق بأنّ الحبيب السائح قد إشتهر في تجربته الإبداعية بطرقه وبجرأة كبيرة قل نظيرها لمواضيع جد حساسة، حيث تناول في هذا النص واقع البلاد في مرحلة متقدمة من إستقلالها الذي إتسم بالصراع على الحكم وبالفساد المتعدد الصور و الأشكال و الذي مس جميع المجالات الحيوية، مما أثر سلبا على مسيرة النهوض الإقتصادي و الحضاري للجزائر المستقلة، كل ذلك بحسب ما تطرحه الرواية حصل نتيجة سياسة النظام الذي تمرد على النهج الإشتراكي ودخوله في تطبيق النهج الرأسمالي، الذي أفرز طبقة رأسمالية تحكمت في مقدرات البلاد وحولتها لمصلحتها الضيقة على حساب الشعب الذي صار يعيش في واقع يتسم بالظلم والإستغلال لا يختلف كثيرا عما كان سائدا في عهد الإستعمار، وهو الأمر الذي رفضه الكاتب و أدانه بشدة ودعا إلى تغييره لأنه يؤدي إلى أسوأ العواقب.

وقد تجلت الأيديولوجية الرأسمالية في الرواية في صورة متوحشة حقا، وقد مثلتها اليد الهلالية، حيث قامت سياستها أساسا على تحطيم الإقتصاد الوطني الذي يعد العمود الفقري لبناء الدول و صناعة الحضارات، فأصبحت البلاد في ظل تحكم الهلاليين في مراكز صناعة القرار في هرم الدولة شبيهة بالأرض المحروقة، رغم ما تختزنه من خيرات ومقومات، فقد عمد مسؤولون بوزارة التجارة إلى خلط القهوة المستوردة بالشعير وبأغذية الأنعام قصد جلب الأرباح عن طريق الغش و التدليس، تقول الرواية" خلطت... القهوة المستوردة من الدرجة الثالثة بالشعير و الخرطان وبأنواع من أغذية الأنعام. أما خلطها بالحمص فتسميم مغرض ضد ديوان الحبوب. لصالح بائعي الكرنتيكة، وبقي أن يجرب نوى التمر و العنب المعصور نبيذا فحتى هذا النوى صار اهل السهوب يستعملونه وقودا؟ علفا؟ سمادا؟ أكلا؟ تجريب زق الدجاج سيلحق. و الإشهار في القناة الوحيدة يموه و ينصح بتردد مفضوح الفلاحين بإستعماله سمادا إخصابا لأراضيهم. و الجفاف؟ قبلي البلاد يحرق الأخضر و يأكل اليابس" (**الرواية، صفحة 25**).

ومن سياسات الرأسماليين المضرة بالإقتصاد الوطني أنّهم قاموا بإتلاف الأراضي الفلاحية وعرقلة تطبيق السياسات الرامية إلى تحقيق التنمية الفلاحية والإكتفاء الذاتي وهذا من أجل فتح باب الإستراد الذي يدر عليهم أرباحا طائلة من خلال تحكمهم في الأسعار وفق هواهم" وفي أرض الوالي كان عنب ومقبرة، قطعت الأشجار وكبرت المقبرة وغادرت الشحارير، ولم يعد غير الصخر يطحن...قطعت أشجار مسبح الضاحية، ولم يعد الربيع للغرس، وتداخلت الفصول في البلاد فسحقت الخضرة، ونسي النواش أهله" (**الرواية، الصفحات 64-65**).

ومن أدبيات الأيديولوجيا الرأسمالية التي يمكن أن نستشف من خلالها روح الفساد المستشري في أوصال أتباعها والساعية إلى الربح السريع بالطرق الغير مشروعة، ما أقدم عليه موظفوا البنوك من إشتراط نسبة مئوية كشرط للحصول على القروض مستغلين في ذلك مناصبهم "لعل الذين حصدوا ريح بني هلال هم موظفوا البنوك الذين فقدوا أي مصاقية في كونهم جنتلمانات تشع منعيونهم رهبة المال وسحر التبر، لأنّ بريقلا السلفية جرفهم إلى العادي من المعاملات حتى صار البنك لا يختلف عن أي إدارة فاحشة السمعة. وأما ما يشاع عن بنك التنمية فشيء يصعب تصديقه من هول حقيقته، فنسب الإرتشاء تراوحت بين الخمسة و بين العسشرة في المئة، من قيمة مبلغ السلفية" (**الرواية، صفحة 26**).

وبالإضافة إلى كل هذا، فقد سعوا إلى نشر الرذيلة والإنحلال الخلقي عن طريق الترويج للمخدرات و تعاطي المجون و شرب الخمور بين أوساط الشعب لصرف الأنظار عما يجري من فساد ونهب للمال العام" دخلت الشرطة مركز الحراسة و حولته مقرا لها لقمع ممارسة الدعارة غير المنظمة وتعاطي المخذرات وبيع المشروبات الكحولية، غير أنّ الشرطة ما لبثت أن أخلتها بعد المظاهرة الكبرى التي حرض عليها في الحي الطبيب الحديدي، كما أورد مخبر مصالح الأمن إحتجاجا على الإرزاء الذي بلغته حال السكان، وعلى محاولة إخفاء مصالح البلدة التقنية و إدارة الصحة العمومية عدوى الإصابة بإلتهاب السحايا بفعل القذارة التي وصفها الطبيب بأنّها تمشي تأكل تأكل وتنام وتلاعب الصبيان في الحي ملاعبة الموت" (**الرواية، صفحة 92**).

ومن هنا يظهر عجز هذه الأيديولوجيا في قيادة البلاد نحو التطور و التقدم الحضاري فلم نراها تعمل إلا كما كان المستعمر يعمل مقلدة و متبعة لنهجه، فلا حديث عن التجديد و الإبتكار، إنما هو تقفي لفلسفة التقليد المتوارثة

عن المستعمر البليد، وتقاعست عن مهمتها الأصلية المتمثلة في الدفاع عن مطالب الشعب وحقوقه، وأصبحت السلطة في يدها كأداة لتقوية مركزها وأداة قمع للشعب وعدوة للديمقراطية، وصار سلوكها يشبه إلى حد بعيد سلوك العصابات اللصوصية، تستمد أفكارها من البورجوازية الغربية القائمة على السرقة و الإستغلال و البحث عن الربح السريع، ولا يهم مشروعية الوسائل المستخدمة في ذلك.

3-4الأيديولوجيا الإشتراكية:

قامت الثورة الجزائرية المجيدة من أجل التخلص من أثار الظلم و الإستغلال الذي فرضه النظام الإستعماري القائم على الأيديولوجية الرأسمالية المتوحشة بقوة السلاح، والذي حول حياة الجزائريين إلى جحيم لايطاق، جعلهم يعانون من كل أشكال القهر و الحرمان و التعاسة والتخلف و التمييز العنصري، وقد تطلعت في حال الإستقلال إلى بناء دولة تقوم على دعائم العدل الإجتماعي وتهدف إلى إيصال الخير و تحقيق السعادة و الرفاهية للجميع و العمل على القضاء على التمييز الطبقي بمختلف أشكاله، لإرساء واقع جديد يختلف كل الإختلالف عن الواقع الإستعماري البغيض، وعلى أساس فكرة مفادها أن الحياة هي مادة الأدب بكل ما فيها من تفاصيل، ونتيجة لظروف إقليمية و محلية شهدها العالم إثر تغيرات أيديولوجية وسياسية جذرية كان لها إنعكاساتها على الصعيد الوطني بعد الإستقلال قد "دفعت الكتاب و النقاد إلى الإقتراب أكثر من الواقعية الإشتراكية و الإستفادة من رؤيتها رغبة منهم في مواكبة العصر، وإسهاما في الكفاح الوطني من أجل تعديل الواقع و تغييره" (**زعموش، 1989-1990، صفحة 175**).

وقد سخر الكاتب قلمه للترويج للأيديولوجية الإشتراكية و الدفاع عنها لكونها من وجهة نظره السبيل الوحيد الذي يحقق طموح الشعب في العيش الكريم والذي يقف سدا منيعا في وجه الإنتهازيين الذين يسعون في تخريب مقومات البلاد الإقتصادية، لكي يتسنى لهم بسط أسلوبهم الإنتهازي وتحقيق الإمتيازات المختلفة على حساب الخزينة العمومية، وعليه فقد بدت هذه الأيديولوجيا في الرواية بصورة غير معلنة وفي غير صراع مع الهلاليين ممثلي الأيديولوجيا الرأسمالية، لكن تظهر ملامحها من خلال شخصية الراوي خليفة المداح الذي إتخذ من "بلاصة الحيرة" منبرا لفضح سياسة الهلاليين وما يقومون به من أعمال تخريبية إضرارا بالوطن والمواطنين" مول المحنة يا حضار واحد من البلاد، سبحان خالقي مولاي مكن لي نعمة الكلام. الرجال بافعالها كما النسا بمعادنها و البلدان باثارها. جاه الزمان على بغتة، فتح له الصدر وقال، القلب حنيني محفور لمدينة هرشمت مزولتها، وبلاد اتلف كنيستهن وجحد مسابحه، ونسي جوامعه وانعقد فيه لسان اللغة عن فك طلسمات جدولها" (**الرواية، صفحة 39**).

وهذا الوضع المعقد الذي أصبح عليه حال البلاد يعود سببه إلى إستحواذ الهلاليين على كل القطاعات في المدينة وفرض منطقهم، دون مقاومة أو معارضة تذكر من عامة الشعب الذين ظهروا متقاعسين و لا يستطيعون القيام بأي فعل للكبح من جماح هؤلاء المخربين الذين لايعرفون إلا النهب و السرقة و البحث عن الربح السريع على حساب الشعب المقهور.

كما يتجلى النزوع الإشتراكي أيضا من خلال شخصية "بلغرايب" الذي بدا متحسرا على ضياع منجزات الثورة الزراعية " وأين جحافل طيور الدوري ما عادت تفرخ في النخل البرهوش؟ لم تزبر ليمونة أخرى، يبست أشجار

الأكاسيا، أين أشجار التوت وعين البقرة، ماتت أشجار الخروب، وأين أشجار تمر الترك و المسواك، إنقرضت أشجار الإجاص، أين أشجار الكروم، الوادي نشف، هل يبقى هذا القبلي للعين كيما تدمع؟..." (**الرواية، صفحة 63**).

إلا أن هذه الشخصية وعلى غرار بوحباكة بدت عاجزة عن فعل التغيير ومهزومة ساخطة على المجتمع الذي حاول بث التوعية فيه لكن لا حياة لمن تنادي، وأمام ذلك كان موقفه موقفا سلبيا ، حيث فضل الهروب من مواجهة هذا الوضع التعيس، وهو أمر سلبي للغاية، إذ أن حركة التغيير تتطلب نفسا طويلا وصبرا حتى تؤتي أكلها، ولا يمكن أن تساهم سياسة الهروب في حل الإشكالات الإجتماعية المطروحة، وهو في رأيي يعبر عن إستياء الكاتب من أداء الحركات السياسية و الفلسفية الطامحة إلى تغيير الأوضاع على النحو الذي يتلائم مع الخيار الإشتراكي.

3-5 أيديولوجيا السلطة:

بدت أيديولوجيا السلطة في هذه الرواية متساهلة مع الهلاليين الذين عثوا فسادا في المؤسسات التي سيروها وبسطوا عليها نفوذهم، وهذابسبب عدم وجود معارضة حقيقية تتصدى لهذه التوجهات الرجعية، فهي لم تتدخل إلا عند تأزم الوضع العام الذي أصبح يمور بالفساد بفعل سياسات الهلاليين الرامية إلى نشر الرذيلة في المجتمع لصرف الرأي العام عن النهب الممنهج الذي يقومون به ضد المال العام بشتى الحيل والطرق لخدمة مصالحهم، مما فرض عليها حتمية التدخل عن طريق جهاز الشرطة من أجل الحد من تعاطي المخدرات والخمور و الدعارة التي إنتشرت كالطفيليات في أحياء المدينة " دخلت الشرطة مركز الحراسة وحولته مقرا لقمع ممارسة الدعارة الغير منظمة وتعاطي المخذرات و المشروبات الكحولية، غير أن الشرطة ما لبثت أن أخلتها بعد المظاهرة الكبرى التي حرض عليها في الحي الطبيب الحديدي، كما أورد مخبرو مصالح الأمن، إحتجاجا على الإرزاء الذي بلغته حالة السكان...بفعل القذارة التي وصفها الطبيب الحديدي بأنّها تمشي وتأكل و تشرب و تنام وتلاعب الصبيان في الحي ملاعبة الموت" (**الرواية، صفحة 92**).

في حين بدت غير آبهة بمشاكل المواطنين الذين يعانون من أزمة السكن و البطالة والفقر المدقع مثلما هو الحال مع بوحباكة الذي لم يحصل على سكن يأويه، فأيديولوجية السلطة بحسب توصيف الرواية، لا تتحرك إلا عندما تحس بالخطر الذي من شأنه أن يزعزع إستقرارها ووجودها.

4خاتمة:

تخلص الدراسة إلى مجموعة من النتائج يمكن أن نجملها فيما يلي:

- رواية "ذاك الحنين" يمكن توصيفها بأنّها رواية الأيديولوجيا الإشتراكية، سعى الخطاب السردي فيها لرسم خصوصية في بنيتها الداخلية، طرح فيها الكاتب عدة قضايا حادة و أسئلة ملحة أرقت الإنسان الجزائري كثيرا، للكشف عن أسباب الأزمة السياسية و الإجتماعية و الثقافية التي عصفت بالبلاد نتيجة تراجع السلطة الحاكمة عن الإشتراكية التي حققت العدل و المساواة في توزيع الثروات بين الجزائريين، وبدونها لا يمكن تصور بناء مستقبل زاهر في ظل نفوذ البورجوازية الوطنية الصغيرة التي يعتبرها الكاتب إمتداد ونسخة طبق الأصل للبورجوازية الغربية الفرنسية التي تقوم على النهب و السرقة والإستغلال و الربح السريع.

– موضوع الرواية العام يتجه إلى رفض الوضع الراهن والدعوة إلى تغييره، وسائل الكاتب ظاهرة الفساد المستشري في دواليب السلطة، ليخلص أنّ للسلطة مسؤولية كبيرة في هذا الوضع التعيس الذي أصبح يعشه الجزائريون.

– نص الرواية إستند إلى مرجعيات مختلفة أهمها التاريخ الوطني و الأحداث السياسية البارزة بعد الإستقلال، وأن حضورها لم يكن تكرارا و إعادة و إنما كان هدما وإعادة تركيب من منطلق فهم الحاضر من خلال الماضي، وهو ما ضمن للرواية خصوصية طرحها وانخراطها في معالجة الأزمة الوطنية.

– بدا الكاتب مستميتا في الدفاع عن نزوعه الأيديولوجي من خلال فضح ألاعيب الهلاليين الذين يمثلون الأيديولوجية الرأسمالية المتوحشة التي جلبت الخراب والدمار للبلاد بسبب فكرهم القائم على النهب و السرقة و الاستغلال وتجاهل مطالب الشعب في توفير الحياة الكريمة ورفع الغبن عنه، وكذلك من خلال حنينه إلى العهد البومدييني الذي جسد المبادئ الاشتراكية في الميدان و بذهابه تبخرت أحلام الواقع المثالي الذي كان يحلم به الأديب.

– ومنه يتجلى بأنّ الكاتب يحمل أيديولوجيا الرفض و التغيير، واستطاع سرديا كشف الحقيقة، فأرخ بذلك لتلك الأحداث التي عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث، وانطلاقا من علاقة الرواية بالواقع، فقد عمل الروائي على رصد الاتجاهات الأيديولوجية المختلفة التي طبعت ذلك الواقع الاجتماعي، تجلت من خلال أقوال و أفعال شخصيات مثلت مختلف الأيديولوجيات.

5.قائمة المصادر و المراجع:

1. الأنصاري. (2000). الأيديولوجيا و اليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة، رسالة ماجستير في الأدب، كلية الأداب ، قسم الفلسفة. مصر: جامعة الأسكندرية.
2. إبن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب، ج12.
3. الحبيب السائح. (2002). ذاك الحنين. الجزائر: دار الحكمة.
4. الرواية. (بلا تاريخ).
5. إلياس سوسان. (2022). السرد وهوية الذات عند بول ريكور. ، مجلة جامعة دمشق للأداب والعلوم الإنسانية، المجلد 38، العدد الأول.
6. عبد الله العروي. (2012). مفهوم الأيديولوجيا، . الدار البيضاء، المغرب،: المركز الثقافي العربي، ط8 .
7. عمار بلحسن. (1985). ماقبل بعد الكتابة حول الأ يديولوجيا/ الأدب/ الرواية. فصول مجلة النقد الأدبي، مج5 ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد4، صيف،خريف.
8. عمار زعموش. (1989–1990). إشكالية الواقعية في النقد العربي المعاصر، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة. جامعة الجزائر: معهد اللغة و الأدب العربي.
9. عمر عيلان. (2008). الأيديولوجيا و بنية الخطاب في روايات عبد الحميد بن هدوقة، دراسة سوسيو بنائية. الجزائر: الفضاء الحر.
10. فرانز فانون. (2006). معذبو الأرض. الجزائر: موفم للنشر.
11. مُحَمَّد علي أبو ريان. (1997). الإسلام السياسي في الميزان، . مصر: دار المعرفة الجامعية.